دراسات اجتماعية

الرأسمالية والاشتراكية

للمؤرخ الكبير الأونورابل هـ . ا . ل فيشر

تمهيد

إن ذلك الذى يعيب الرأسمالية ويثور ضدها ، إنما يعيب ويثور ضد النظام الاقتصادى الذى هيأ للعالم ذلك القسط الكبير من الراحة والرفاهية ، الذى يمكن أن نشعر به ، إذا نحن وازنا بين حالنا الآن فى القرن العشرين ، وبين ما كانت عليه الانسانية فى القرون الأولى !

تقوم الرأسمالية على أساس « الملكية الخاصة » ، فهى من هذه الناحية ضد « الملكية العامة » ؛ وفى نفس الوقت قامت على أساسين هما — فى الواقع — الأصل فى كل ماوصلنا إليه من « المدنية المادية » ، أما هذان الأساسان فهما : (ا) النبوغ الفردى (ب) المقاولة الخاصة .

وإنى أعتقد أنه لا يحق لصحيفة تبحث فى الاشتراكية والرأسمالية أن تفضل إحداهما على الأخرى ، أو تذكر أن الاشتراكية متينة الأسس الأخلاقية عن الرأسمالية ، كما لا يحق لها العكس ؛ ذلك بأن كلا من هذين النظامين لم يقم على أسس أخلاقية تناقض الآخر ، وإنما قام كلاهما على غير الأسس الأخلاقية مطلقاً .

فالصدق والأمانة فضيلتان ، والخداع والخيانة رذيلتان ، فى نظر الاشتراكى والرأسمالى على حد سواء . وإذن فهما نظامان متحدان من هذه الناحية ، وكلا هذين لا يعشق الصدق لأنه صدق فى ذاته ، ولكن لأن التجارب أثبتت أن الكذب فى الماديات يضر أكثر مما ينفع .

وإذاً فالطريق الوحيدة للحكم بترجيح أحد النظامين على الآخر ، لا تكون إلا بالموازنة بين ما يمكن أن يؤدى إليه كل منهما من نتائج ، وأحسب أن ليس فى الوجود اشتراكى يظل يبشر بالاشتراكية ويدعو لها إذا هو اقتنع بأن فى انتصار اشتراكيته زيادة فى بلاء الانسان وشقائه ! وما أحسب كذلك أحد الرأسماليين إلا مطلقاً رأسماليته إن هو تبين له من الحادث والواقع ، أن فى استمرار قيام رأسماليته ازدياداً فى انتشار الشقاء والرذيلة والجريمة .

وما كان أعقل « تروتسكى » حين قال : « إنه لا ينتصر من هذين النظامين إلا ذلك الذى

يمكن أن يصل بالانسان إلى المستوى الاقتصادى الذى يريده ويطمع فيه » .

ومن بين ما نقرؤه من دعايات أصحاب هذا النظام أو ذاك يتبين لنا أنهم إنما فضلوا هذا النظام على الآخر ، فقط ، لأنه أقرب إلى تحقيق أكبر قدر مستطاع من السعادة لأكبر عدد ممكن من بنى الانسان ، قالوا إنهم فضلوه لهذا ، ولم يقولوا إنهم فضلوه لما يحويه من مثل أخلاقية عالية ! !

وإنا لنجد فى التاريخ أن نظام أى مجتمع فى أى زمن من الأزمان أو عصر من العصور ، لم يكن إلا نتيجة جملة قوى متعارضة ، بعضها حسن والبعض الآخر ردىء ، ولكن كليهما مستمد من الانسانية على أية حال ...

الرأسمالية

فاذا أمكننا أن نقرأ هذا فى التاريخ عن الاشتراكية أمكننا أن نقرأ إلى جانب ذلك أن الرأسمالية سادت العالم ، ولازمته مدى الزمن ، وأن هذه الرأسمالية عينها هى التى أدت إلى هذا الجم الغفير من النعم الميكانيكية التى تتمتع بها الانسانية الآن ، سواء أكانت هذه الانسانية اشتراكية أم رأسمالية .

والرأسمالية أيضاً هى التى أدت بنا إلى هذا القدر الواضح من سيطرة الانسان على الطبيعة وتذليله إياها ، ولا يمكن أن يشك أحد فى أنها قد قطعت مع الانسانية مرحلة كبيرة ، وأنها قد أدت إلى ارتفاع نسبة الذين يعيشون حياة وادعة منظمة ، وأنه فى وقت سيادتها ، ارتفعت نسبة المتعلمين فى العالم أجمع ، وارتفعت درجة الثقافة ارتفاعاً غير مكابر فيه ، وفى وقت سيادتها تقدم الطب تقدما هائلا ، ووجدت التدابير الواقية من الأمراض والأوبئة . وبايجاز يمكنك — دون ما حرج — أن تعزو كل ماصادفه العالم من تقدم إلى العصر الذى كانت الرأسمالية فيه هى السائدة وحدها .

ولكن الرأسمالية كنظام اجتماعى لها أيضاً مساوئها ، كما أن لها كل الحسنات السابقة ، وهل الرأسمالية إلا نظام اجتماعى اخترعه أوسار عليه العقل الانسانى ، وهو كائن كان وسيكون على مر الأجيال عقلا غير كامل ذلك الكمال الذى يتصوره السادة الخياليون ؟ ! فكيف إذاً يريد أعداء الرأسمالية أن تكون نظاماً خالياً من كل شائبة أو عيب ؟ !

إن ما كان من بعض الرأسماليين من كذب وخداع وظلم للطبقات العاملة ، هو ما سبب تلك القوة الهائلة التى صار إليها أنصار الاشتراكية فى بلاد الانجليز وغيرها . وفى الحق تستطيع أن تجد أعداء كل من المذهبين لايقيمون دعاواهم إلا على الجزء المعيب من كل منهما ، أما المحاسن العديدة فلا يذكرونها أبداً .

فالرأسماليون يقولون: إن الطبيعة أرادت أن يكون هناك القوى والضعيف، والغنى والفقير، وطاهر النفس وخبيثها، ورضى الأخلاق وذميمها، وفى ذلك تقرير لما عليه الطبيعة؛ لأن التساوى معدوم فيها غالباً.

ويبنون على قولهم هذا أنه يجب أن يترك كل إنسان وما حبته الطبيعة به، ينعم به ماقدر له؛ أما محاولة الفقير أن يكون غنياً بغير طريق الغنى المرسوم فمسألة لا يمكن أن تنتهى إلا بالفشل المحقق.

الاشتراكية

وبينما يقول الرأسماليون هذا، ترى الاشتراكيين يقولون: إن النفس الانسانية ميالة بطبعها إلى امتلاك كل شىء؛ وهى لا تتورع - فى سبيل امتلاك كل شىء - عن ظلم الكثيرين وشقائهم وتدمير حياتهم، وأولئكم الذين يستطيعون أن ينتصروا فى النهاية بمثل هذه الطرق الشائنة هم - كما هو المشاهد - عدد قليل جداً، ولكنه يمتلك ثروة العالم كلها؛ والسماح للأفراد بالتحكم فى الجماعات أمراً يجيزه عقل ولا ترتضيه عاطفة ولا يقره ناموس، وماسادت الرأسمالية فى الأعصر السالفة إلا لذلك الجهل الذى كانت ترتع فيه الجماهير، نتيجة جهود الأمراء والأعيان الذين كانوا لا يحبون - بطبيعة نفوسهم - أن يشاركهم إنسان فيما يملكون؛ أما وقد زالت هذه الغشاوة عن الأبصار، فالواجب يقضى على الجماهير أن تهم بإيقاف هذا النظام الذى سبب لأجدادهم كل ماسبب من شقاء، وأن تعمم النظام « الكامل » الذى يتيح للمجتمع شيئاً كثيراً من المساواة بين بنى الانسان جميعاً!

وأنت تجد الحركة الاشتراكية فى بلاد الانجليز، قد بقيت على سوء ذلك النظام التجارى والصناعى الذى كان موجوداً من قبل القرن التاسع عشر وفى القرن التاسع عشر نفسه.

واشتراكيو الانجليز إنما أخذوا بفكرة العمل على تعميم الاشتراكية من أقوال كثير من قادة الفكر العالميين مثل: (كارليل) و(راسكين) و (مريديث) و(هاردى) و (تولستوى) و(إبسن)، وفى ذات الوقت من (وليام موريس) و (بيرن جونز).

وقال زعماء الاشتراكية: إن هى إلا حركة للتخلص من أطماع المتنافسين الدنيئة. والخلاص من تحكم الأفراد بالظلم فى رقاب الجماعات، والفكاك من فكرة تضحية مستقبل العالم الاقتصادى فى سبيل إنقاذ الموقف الحالى.

وقالوا: إنها حركة تدعو إلى المساواة فى «الشغل والتشغيل» كما تهب القوة لمن كان من قبل عديمها، فهى تدعو إلى إنقاذ الحمل الضعيف من براثن الذئب العقور؛ تدعو إلى سيادة الرأفة والرحمة والشفقة، تدعو إلى قيام العدل على أساس قيام حكومات اشتراكية.

وقد كانت تلك القوانين التي امتلأ بها التشريع الانجليزي في القرن التاسع عشر ، أول بشير للمبادىء الاشتراكية بالسيادة والذيوع في انجلترا وقد بدأ ذلك من العصر الفكتوري .

وعلى كل حال ، فان قادة الاشتراكية من الانجليز لم يكونوا هم الذين سودوا تلك النظرة التي صارت الطبقات العاملة في أوروبا تنظر بها الآن إلى الرأسماليين ، بل إن المسبب لها هو كارل ماركس .

كارل ماركس

كان « ماركس » رجلا منقطع الذكاء ، دقيق الملاحظة ، كما كان متوقد العزم ، بالغ الحماسة ، شديداً جد الشدة ، صارماً رغم بعض الاضطراب في النظام التنفيذي الذي ارتآه لآرائه ، وكان يرمي إلى غرض نبيل وعظيم ...

تستطيع أن تقول عنه ما تشاء ، وأن تجمع في شخصه كل طبائع ومعلومات الإنسانية ، ولكنك لا تستطيع أن تقول عنه إنه كان من عشاق الأسس الأخلاقية المثالية التي لا يمكن أن تتحقق إلا في العالم المثالي ؛ وتقرير الحقيقة فان « كارلس ماركس » و « مكيافيللي » أيضاً لم يتكلم أحدهما وفي ذهنه شيء اسمه الفضيلة أو الفضائل ، فقد كان ماركس ينظر إلى العالم بمنظار أسود تمثل معه القسوة وينتشر في خلاله الزور والظلم والبهتان . فلهذا العالم الذي تبدى له في أسوأ صورة حاول وضع التشريع والقوانين .

لم يكن غرض (ماركس) أن يسود السلام العالم ، وإنما كان غرضه أن يظهر بوضوح كل تلك المساوىء والمخازي التي غرق فيها العالم كله بمختلف طبقاته ، وأن يضع لكل شيء حداً يقفه عنده ؛ كان يرى أن العالم كومة من الأخطاء يجب أن تبيد ؛ ولم يسبقه أحد إلى النظر للحياة الاقتصادية بتلك النظرة .

ولما كان الانجليز أخلاقيين منذ ولادتهم ، فقد أخذوا عن ماركس ما أخذوه ، وقصدوا إلى الإصلاح ، ولكن بالطرق السلمية ؛ أما الروسيون فقد أخذوا عنه أكثر من ذلك ، إذ هبوا مرة واحدة يقاتلون ثائرين ضد نظام الدولة الخاص والعام ، عاملين على تسويد المساواة الكاملة ، والملكية العامة كاملة ؛ أو ما يسمونه « الشيوعية » .

كان من بين آراء « ماركس » أن قيمة الكماليات التي ينتجها العمل يجب أن تساوي كمية العمل الضروري بذله اجتماعياً ؛ ولسنا هنا بصدد مناقشة هذا الرأي ، وإنما أوردناه لأن الرأي السائد عنه أنه يحوي بين طياته فكرة أخلاقية عالية .

والواقع أنه : كيف يمكن أن نقيس قيمة الكماليات بحيث تساوي كمية العمل اللازم أداؤها اجتماعياً ؟ ! إنه ليست هناك علاقة بين الضرورة الاجتماعية والعدالة الاجتماعية ، ذلك لأن الضرورة الاجتماعية تقاس بالحاجات الاقتصادية ، أما ماذا يمكن أن تكون هذه الحاجات ، فذلك

مايتوقف على درجة ونوع المدنية التى يسير عليها المجتمع فى أية فترة من فترات حياته، فذلك المجتمع الساذج لايمكن أن تكون حاجاته الاجتماعية إلا ساذجة ! وذلك المجتمع الحرب لايمكن أن تكون حاجاته الاجتماعية إلا حربة ، والمجتمع المغرق لايمكن إلا أن تكون حاجاته الاجتماعية مغرقة وهكذا ، كما أن المجتمع الراقى لايمكن أن تكون حاجاته إلا راقية أيضاً.

والحق أن تلك الاعتراضات التى يعترض بها ضد الشيوعية ليست اعتراضات تقوم على أساس المثل الخيالية الأخلاقية، وإنما هى اعتراضات عملية بحتة ؛ فهم يقولون مثلا: إن فى تسويد الشيوعية انعدام الكفايات تبعاً لانعدام التنافس، وإن فيه أيضاً قتلا لكل الدوافع والعوامل والمحركات التى تحدو بالعامل إلى إتقان عمله ، وحيث إن الإدارة الحكومية ستديرها وكالة من الشعب فسيصعب الحصول على الموظفين الأكفاء من حيث المهارة الفنية ، فضلا عن أن فى انتشار الشيوعية عملا واضحاً ضد قوانين الطبيعة التى سارت عليها الانسانية منذ فجر التاريخ ، والتى قامت الأدلة على إمكان الاستفادة من سريانها .

وفى فلسفة (ماركس) فكرة أخرى جديرة بالنظر، ولكن الروسيين يؤولونها تأويلا قبيحاً جداً ، فقد قال ماركس: « إن التاريخ كله ليس إلا سلسلة من التطاحن والقتال المستمر بين بعض الطبقات وبين البعض الآخر »، فانظر إلى الشيوعيين وقد أبوا إلا أن يخرجوا من هذه العبارة « أن التاريخ يجب أن يظل أيضاً سلسلة من تعارك الطبقات !! ». ومن السهل جداً أن يدرك الانسان أن مثل هذا التخريج لايتليه إلا خيال سقيم.

وإنى أعتقد أن مارتس لم يقل هذه العبارة كفكرة من الفكر الفلسفية التى يصح أن تؤثر عنه ، وإلا فماذا يقول فى كثير من الشعوب التى لم تحدث فيها على الإطلاق حروب الطبقات ؟ ! وماذا يقول أيضاً فى تلك المجتمعات التى سارت على احترام حقوق كل فرد من الأفراد بصرف النظر عن شخصيته ؟ ! وماذا يقول فى تلك المجتمعات التى كانت فيها حرب طاحنة حقيقية بين الطبقات، ولكن أحداً ما لم يأت إلى خياله شىء عنها ؟!

وما أصعب على ماركس نفسه ـ لو أنه أراد أن تسجل عنه هذه العبارة ـ أن يصدق ماقاله عن التاريخ من أنه سلسلة من حروب الطبقات ! ! فاذا كان المجتمع الانسانى لم يكن إلا حروباً متوالية كما سجله التاريخ ؛ فكيف يمكن إذن أن يوجد ذلك المجتمع المثالى الذى رسمه فى كتاباته ؟ والذى قال عنه. إن المساواة الكاملة والعدل الذي لاعدل بعده يتوفران فيه دون شك ؟!

وعلى كل حال ، ومهما تكن قيمة أقوال ماركس من جهة التاريخ، فإن الذى لاشك فيه هو أن اعتراضاته على الرأسمالية كلها، ليست مبنية على أسس أخلاقية خيالية ، وإنما هى من مستخرجات تقليات الحياة الحقيقية ، وإلا فكيف يمكن أن نوفق بين قول ماركس هذا وما يتصورونه بين طياته من المثل الأخلاقية ، وبين قوله الآخر « الفضائل لا علاقة لها بالتقاتل

فى عالم من المادة ... وليس فيه غير المادة شيء . . . ؟ ! إنها ليست المثل الأخلاقية التى تثير طبقة فى مجتمع ضد طبقة أخرى، وعلى نقيض ذلك فإن هذه المثل هى التى تنهزم على طول الخط».

وهناك شيء آخر فى فلسفة « ماركس » يستحق أن نتعرض له قليلا ؛ ذلك هو نكرانه أن القيمة العالية فى التاريخ كله لم تكن للطبقات العاملة، وإنما كانت وما تزال للطبقات التى تملك الأعمال وتديرها . . . وعنده وعند بعض كتاب الاشتراكية: أن التاريخ كله إنما هو إلا سلسلة أخطاء متتالية فى (علم إمساك الدفاتر)، وكان من شأن هذه الأخطاء عدم الإشادة بذكر ماقامت به الطبقات العاملة من الخدمات ، ونسبة كل خير إلى الرأسماليين، وكان من نتيجة مناداة هذا البعض بهذا الرأى أن جرؤ بعض الكتاب فخرج منه تخريجاً مضحكا للغاية ، فقد قال (ج . اد . هـ كول) إن العامل الذى يساهم فى إنجاح أحد الرأسماليين إن هو إلا لص يساعد لصاً أكبر منه ، دون أن يكون له من وراء ذلك قصد أو مغنم إلا التافه اليسير من المال والجاه ! وهذا التخريج رغم سخافته يروق — كما قيل لى — كثيراً من الناس . . .

والتخريج الثانى هو : أن من الواجب العمل على إعطاء القيمة العالية للعمال الآن، حيث إنهم هم الذين يقومون بالعمل فى الواقع، وليس السادة الرأسماليون ! ! وأن يسجل التاريخ للعمال ما حرموا من تسجيله لهم طوال تلك الفترة الطويلة من حياة الانسان، حيث لم يكن ذلك إلا نتيجة لهذا الخطأ فى « إمساك الدفاتر » !

وبعد، فلعل القارىء — بعد كل ماتقدم — يستطيع أن يكون معى فى الاعتراض على أولئك الذين يذمون الرأسمالية دون الاشتراكية أو العكس بالعكس . وأقول فى النهاية: إن فى التنافس بين بعض ذوى الأملاك الخاصة والبعض الآخر ، وبين المنتجين والموزعين وسائر طبقات الرأسمالية أيضاً كثيراً من المساوىء . ولكنه — إلى جانب ذلك — يعطى المستهلك مايريده ، ووسط عديد من التجار المتنافسين ؛ فالزبون هو الملك !! ذلك لأن الزبون هو الذى يملى على التجار أنواع مايحتاجه من الأشياء ، وكمية ماتحتاجه منها، وهى احتياجاته — سواء أكانت حسنة أم قبيحة، تلك التى يدرسها المنتجون فى العالم أجمع، ليقدموا له مايحتاجه فيقبل عليه ويشتريه. فينال التاجر مايريده من غلبة وربح . والمستهلك عند التجار عادة هو الرجل العادى، رجل الشارع، وهو فى التاريخ الاقتصادى، وفى تسعة أعشار الحالات التجارية ، الذى يقوم بأداء طائفة كبيرة من الحسنات والفوائد الاقتصادية، وذلك بإعراضه أو إقباله على زيد من الناس أو عمرو . وهو رجل الشارع الذى يثير اطماع المنتجين ، وهو الذى يقدم لهم فى النهاية تلك الثروات الطائلة التى ينعمون بها.

إن كسب المال الكثير فى العالم لا يمكن أن يكون بتحكم الرأسماليين فى حاجات الملايين ولكن بتقديم ما يريدون بأرخص ما يستطاع. فيمكنك أن تدافع عن الرأسمالية دون حرج ، فلا تذكرعنها أكثر من هذا « تقدم الرأسمالية للشعب، ما يريد الشعب، وبأقل ثمن يمكن أن يدفعه الشعب، مما يتفق مع حاجاته وحالاته ومطالبه» . . .